محمود عبد الواحد

الآخرون

« وقال لي : اذا رأيت النار فقع فيها
ولا تهـرب .. فانـــك ان وقعت
انطفت .. وان هربت منها .. طلبتك
... واحرقتك » .
ـ محمد النفري ـ

ـ ١ ـ

الشمس كوة في الجحيم .. تحاصره بجيش من الشرار واللهيب. وهذا البلد اللعين لا يستقبل الغريب الواقف على اعتابه بكلمـــة او اشـارة ..

وهذه الازقة المحشوة بالغبار والفراغ .. لا تبوح بحرف او رجل ... حتى ولا بمواء قطـة او عواء كلب .. لا شيء غير اوراق تلهـو بهـا الريح .. والشمس كوة في الجحيم .. وخطا الى الامام بضـع خطوات مترنحة .. كل واحدة منهـا تطرح سؤالا بحجم القدم الذي يكتنف المكان .. وكانت تمتد خلفه على الطريق الترابي آثار قدميـه المتعبتيـن .. كآلاف التواقيع على ورقـة « عرض حال » من اجل قضية خاسرة سلفا .. وكـان العطش حبلا ليفيـا غليظـا التف على عنقـه وقال له : ساخنقك .. فانطلق استغاثة جريحة .. ومـا اجاب غير الصدى .. والكوة التي في .. الجحيم ..

وهبت فجأة عاصفة قوية .. مرت بجانبه وقالت له : اياك ان تتعب او تيأس .. وفتح حجر فمه وقال : اذا تعبت صرت مثلي ..

فارتمى امامه وسأله بلهفـة ان يقول المزيد .. ولكن جرادة حطت على فم الحجر .. واطبقه .

ـ ٢ ـ

« كان هناك صبي .. يذرع الارصفة الشتائية تحت المطر.. واضعا يديه في جيوبه وهو يصفـر مقلدا لحنا مـا .. او اغنية . ومـــرة استوقفته « نورية » ساحرة وامسكت بكفه .. فسحبهـا خائفـا .. لكنهـا قالت له برقـة :

ـ لا تخف .. انني عرافة .. وساقرأ لك كفك

ولكنه لم يصدق .. بل ازداد خوفا

ـ انني اقرأ الكف والعيون والوجوه .. واعرف من خلال الصوت والصـورة وطريقة المشي والبكاء سيرة كل انسان .. والام سيصير.

فقال لهـا بدهشة .. وقد فارقه الخوف :

ـ حقا .. ؟! .. اذا مـاذا في غد أكون ..؟

ثم مد لهـا كفه .. فحدقت فيها مليا ثم قالت :

ـ يقول لي هذا النهـر المتدفق الذي يقطع راحتك من الشمال الى الجنوب بانك ستكون شاعرا او نبيا .. ويستحيل فمك جـرحا ابديـا ينزف الحروف والكلمـات على مر العصور ..

ـ ومـاذا ..؟!

ـ وهذه الراية التي تخفق في منتصف كفك تقول : ولك بلاد غير هذه البلاد . في هذه البلاد تنتظرك وتهتف باسمك فابحث عنها ..

وهذا الدم اليابس على رأس ابهامك يقول بأنك ستموت مطعونا بخنجـر او حرف .

فهتف متلعثمـا وهو مأخوذ بوجهها الجميل :

ـ وماذا .. وماذا أيضا !؟

ـ امك مريضة .. وهي عاتبة عليك لانك لا تعودها

ـ ولكن امي ماتت منذ زمن بعيد .. هكذا قالوا لـي .. ماتت وهـي تلدنـي ..

ـ كذب .. كذب .. واياك ان تخون الوصية ..

ثم تحولت الى سحابة وجرت لاحقة بأخواتها »

ـ ٣ ـ

عندمـا اقترب من الباب الاول لم يكـن هناك غير الغبار والقيظ والريح العاصفـة وغير الجوع والعطش .. وكانت « يا هـلا » .. حلم المسافـر التائه في صحاري الغربة والنسيان .. رفع يده ثم طرق عدة طرقات خفيفة مهذبة .. فلم يرد احد .. لمح ضوءا ينسل من احدى النوافذ فمضى نحوها .. وعندمـا دنا مـن زجاجها انطفأ الضوء واسدلت الستائر .. وعلى الباب الثاني دق بقوة اكبر ... فلم يرد احد .. وعلى الباب الثالث والرابع والالف .. وصاح باعلى صوته طالبا الخبز والماء .. فلم يرد احد .. والشمس كوة فـــي الجحيـم ..

ـ ٤ ـ

« وكان هناك طفل .. يرسم اللـه « بالطبشور » علـــى بلاط

الشارع .. ويناجيه باكيا .. ثم يجري وراء فراشة الحقول وهو يناديها بيا اختي .. وفي الليل يزور قصور الاميرات الصغيرات ويلعب لعبة الفارس الشجاع والاميرة اليتيمة مع اصغرهن واحلاهن .. ولكن .. تحول فيما بعد الى جامع للتوافيع من اجل قضية خاسرة سلفا . »

— ٥ —

احس وهو منكفيء على لهيب الرمل .. بظل .. برطوبة ظل تزحف فوق جسده المحموم.وامتدت يد ووضعت امامه دورقا يشف عن ثلج وماء .. وامتدت اخرى والقت بصرة فيها خبز وتمر .. فرفع راسه مندهشا ... فرسمت المراة المجهولة ابتسامة غامضة على شفتيها .. ثم انصرفت وهي تشير الى الماء .. فمد يده بلهفة وتناول الدورق واراق كل ما فيه على وجهه وشفتيه .. ثم اختطف بضع تمرات وكسرة خبز التهمها دفعة واحدة ..

تطلع اليها واجما دون ان يقوى على نسج كلمة .. فاقتربت منه باسمة .. وجلست بجانبه وهي تضع راحتها على جبينه ... ثم صاحت هلعة :

— حرارتك مرتفعة جدا .. !!

ولم يكن يفصل ما بين الصمت الذهولي والانفجار بكاء وفرحا سوى قشرة رقيقة جدا .. جدا .. ولكنه لم يقو على نسج كلمة .. وكانت الشمس حقل سنابل وياسمين ...

التقت عيناه بعينيها مرة اخرى .. فحدقت فيهما .. وحالما انتهت من قراءة ما التمع بداخلهما .. مدت يدها الى قميصها. وحررت الازرار من عراها .. وفي لحظات انتصبت امامه عارية ... فجرت آلاف الثيران في دمه لاهثة هائجة .. واقتربا .. وكانت مسافة البعد ما بين جسديهما تضيق وتضيق ..

— ٦ —

« في البدء كان البحر .. وكان وحيدا مثقلا بالملوحة والوحول .. ولم يطق استمرار هذه الحالة .. فجرى في كل مكان ثائرا وهو يهدد ويتوعد .. وفي ليلة من ليالي الصيف عثر في تطوافه المجنون على جزيرة صغيرة لم يرها من قبل .. فتوقف امامها مستغربا وسالها :

— من انت ..؟!

فاجابت بصوت ناعم رقيق :

— احقا لا تعرفني : ؟..انا التي كانت في اعماقك صخرة مهجورة!.

— وكيف صعدت الى هنا !؟

— أحسست بالضجر .. فشكوت امري الى القمر .. فاشفق علي والقى الي بحبل من شعاعه الفضي واخرجني ..

فأحس البحر لاول مرة بالغيرة تنهشه ولكنه اخفاها وصاح :

— هل تاتين لنمارس الحب معا ؟

فرمشت بجفنيها أن : لا

فهمس في ضراعة الشحاذ :

— أرجوك .. ولتكن المرة الاولى والاخيرة .

ولكنها صرخت بعناد طفولي :

— لا

فانتابه الغضب والهياج وصاح بأعلى صوته :

— انا البحر .. من يجرؤ على معارضتي ..

ثم حشد كل امواجه حولها وهجم عليها محاولا اغتصابها ... ولكن حوافها كانت عالية جدا .. وظل سبعة بلياليها وهويلطمها ويتشبث باطراف صخورها حتى ادركه اليأس والتعب .. فسحب امواجه .. واستدار عائدا .. وهو حزين موجع القلب .. فصاحت به :

— ارجع .. هل « زعلت » حقا .. كنت امزح فقط

ثم استلقت على ظهرها .. وفرشت جسدها امامه .. فهرول ، اليها فرحا جذلان ، وغمرها بجسده الندي .. وانهال عليها بالقبل .. وكان حيثما زرع قبلة .. تنبت عشبة او زهرة ... ويطير عصفور .. »

— ٧ —

فجاة .. وفي ذروة العناق .. انفتحت كل الابواب التي كانت مغلقة .. واندفعت منها قطعان من الهراوات والشتائم والاستعاذات بالله واللحى الكثة السوداء .. وركضت متجهة نحوهما .. انتفض واقفا .. وجسده يرتعش من وقع المفاجاة .. اجال بصره فيما حوله بسرعة خاطفة .. كان الطريق الى الصحراء مفتوحا ، خلفه.. اهرب .. سافاك قويتان .. لا .. بل .. لو .. هل كيف .. اهرب .. لا .. اهر .. لا .. ثم استدار بتصميم .. وامسك بها من كتفيها ثم ضمها اليه بشدة .. واهوى بفمه على شفتيها ..راسما توقيعه الاخير والنهائي على القضية الخاسرة سلفا .. واغمض عينيه .. وكانت الشمس نافورة من الدم والحريق .

دمشق

دراســـات ادبيـة
من منشورات دار الآداب

مذكرات طه حسين	د . طه حسين	التكسب بالشعر	د . جلال الخياط
من ادبنا المعاصر	« «	شخصيات من ادب المقاومة	سامي خشبة
تجديد رسالة الغفران	خليل الهنداوي	سيمون دو بفوار اومشروع الحياة	فرانسيس جانسون
الادب المسؤول	رئيف خوري	كامو والتمرد	لدولوبيه
بين آدم وحواء	د . زكي مبارك	بابا همنغواي	أ . ا . هوتشنر